

تواما النار

في واقع اجتماعي اقطاعي مثقل الضغط والتخلف وال العلاقات الاجتماعية البالية، وبالذات في مجتمع كردي شرق؛ ولدت عاشقة، متعطشـ من سنين وشهور.. منذ أيام وساعـات.. منذ دقائق وثوانـي ذاتـ مرارتها لحظـة.. منها ازداد حبـها للانتقام.. بالآمـها خلـقت ارادـتها، بـمرارتها جـددت أـملـها وـثـقـتها وـأـتـمـتـ وـعـيـها وـعـلـمـها، وبـها شـهـدتـ وـلـادـةـ رـوـحـ جـديـدةـ. عـشـفـتـ أـنـ تـكـوـنـ فـدـائـيـةـ لـأـجـلـ السـلـامـ وـالـحـرـيـةـ، ذـلـكـ انـ الـحـرـيـةـ تـسـتـحـقـ الـفـدـاءـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ.

تقول عن ذاتـها "عـشـتـ فـيـ كـنـفـ أـهـلـيـ كـالـخـادـمـ، أـقـوـمـ بـجـمـيـعـ الـأـعـمـالـ الـمـنـزـلـيـةـ بـرـوـحـ طـوـعـيـةـ، لـكـ لـمـ اـرـ مـقـابـلـ ذـلـكـ قـيـمـةـ لـيـ". مـنـ بـكـارـةـ سـنـهاـ وـهـيـ مـقـنـعـةـ بـاـنـ الزـوـاجـ يـزـجـ بـالـمـرـءـ فـيـ الـفـقـصـ، وـيـغـلـقـ أـمـامـهـ كـلـ آـفـاقـ الـتـفـكـيرـ، يـصـفـ الـحـرـيـةـ وـيـذـبـحـ السـلـامـ الـآـمـنـ.

تنتمي الـرـفـيقـةـ لـلـيـلـىـ إـلـىـ عـاـنـلـةـ وـطـنـيـةـ مـتـوـسـطـةـ الـحـالـ، مـثـلـةـ بـالـأـفـكـارـ الـعـشـائـرـيـةـ وـالـاـقـطـاعـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـعـرـفـ بـاـيـةـ حـقـوقـ لـلـمـرـأـةـ كـإـنـسـانـ، وـلـاـ تـعـطـيـهـ أـيـ قـيـمـةـ تـذـكـرـ. لـذـاـ وـاجـهـتـ الـرـفـيقـةـ لـلـيـلـىـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـصـاعـبـ فـيـ حـيـاتـهـ، وـكـانـ لـهـاـ عـشـقـ كـبـيرـ لـلـحـرـيـةـ. لـهـذـاـ كـانـتـ تـشـاطـرـ رـفـيـقـاتـهـ فـيـ اـفـكـارـهـ اـهـمـهـ، وـتـتـنـاقـشـ مـعـهـنـ سـرـاـ، مـتـطـلـعـةـ إـلـىـ الـيـوـمـ الـذـيـ تـنـالـ فـيـهـ حـرـيـتـهـاـ كـانـسـانـ ذـيـ كـرـامـةـ وـعـزـةـ...

أـرـادـتـ الـرـفـيقـةـ لـلـيـلـىـ اـقـنـاعـ الـعـاـنـلـةـ بـاـفـكـارـ الـحـزـبـ PKKـ وـلـكـنـهاـ كـانـتـ تـوـاجـهـهـاـ كـمـاـ الـحـجـرـ الـاـصـمـ، وـلـاـ غـرـابـةـ فـيـ ذـلـكـ، ذـلـكـ اـنـ الـمـرـأـةـ هـيـ الـشـرـفـ الـاـكـبـرـ، لـاـ الـوـطـنـ!ـ بـالـنـسـبـةـ لـهـمـ، وـلـمـ تـتـنـقـ أـيـ جـوابـ.

عـنـدـمـاـ سـمـعـتـ الـرـفـيقـةـ نـبـأـ أـسـرـ قـيـادـتـاـ فـيـ 15ـ شـبـاطـ 1999ـ لـمـ تـسـتـطـعـ تـحـمـلـ ذـلـكـ الـخـبـرـ الـمـؤـسـفـ الـذـيـ كـانـ نـزـلـ عـلـيـهـاـ كـمـاـ الصـاعـقـةـ.. دـارـتـ بـهـاـ الـدـنـيـاـ، وـرـاحـتـ تـفـكـرـ فـيـ وـسـيـلـةـ بـفـجـرـ بـهـاـ غـضـبـهـاـ الـلـاـ مـتـنـاهـيـ، وـتـسـعـىـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ الـحـيـاـةـ الـمـشـرـفـةـ، بـحـيـثـ تـتـقـرـبـ مـنـ جـوـهـرـ الـقـيـادـةـ وـتـلـتـحـ بـهـاـ.. اـجـتـرـتـ اـحـسـيـسـهـاـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ.. لـمـ يـعـرـفـ النـوـمـ لـعـيـنـهـاـ طـرـيـقـهـاـ فـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ.. وـبـدـأـتـ تـرـاـوـدـهـاـ أـفـكـارـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـهـاـ تـتـزـاحـمـ عـلـىـ فـكـرـهـاـ...

"ـ مـاـ الـذـيـ سـيـحـلـ بـنـاـ بـعـدـ اـعـتـقـالـ الـقـيـادـةـ؟ـ مـاـ الـذـيـ يـاـمـكـانـيـ عـمـلـهـ؟ـ...ـ وـأـسـنـلـةـ أـخـرـىـ كـثـيرـ حـيـرـتـهـاـ وـلـمـ تـعـرـفـ لـهـاـ جـوابـاـ...ـ ظـلـتـ تـنـظـرـ إـلـىـ السـمـاءـ بـصـمـتـ وـحـزـنـ ثـقـيلـ قـدـ حـلـاـ ضـيـفـاـ عـلـىـ قـلـبـهـاـ الغـضـ فـيـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ"ـ...

لـمـ تـفـارـقـهـاـ تـلـكـ الـمـشـاـهـدـ الـمـأـسـاوـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ قـدـ شـاهـدـتـهـاـ عـلـىـ شـاشـةـ الـتـلـفـازـ وـلـوـ ثـانـيـةـ وـاـحـدـةـ...ـ وـأـخـذـتـ تـرـدـدـ فـيـ قـرـارـةـ نـفـسـهـاـ "ـ اـسـمـكـ مـحـفـورـ فـيـ قـلـبـيـ قـانـدـيـ..ـ أـنـكـ أـغـنـيـةـ تـتـجـدـدـ عـلـىـ شـفـاهـ الـمـلـاـيـنـ..ـ يـاـ مـنـ رـسـمـتـ لـنـاـ طـرـيـقـ الـحـيـاـةـ الـحـرـةـ وـوـضـعـتـ بـاـفـكـارـكـ اـبـجـيـةـ الـحـيـاـةـ الـمـشـرـفـةـ..ـ قـانـدـيـ..ـ عـاشـقـةـ أـنـاـ، وـعـشـقـيـ مـدـفـونـ فـيـ الـلـاـعـمـاـنـ مـنـ سـنـينـ، وـقـدـ حـانـ الـوقـتـ لـأـعـلـنـ فـيـهـ عـنـ عـشـقـيـ هـذـاـ دـوـنـ أـيـ تـرـدـدـ أـوـ خـوـفـ"ـ.

وـفـيـ صـبـاـحـ السـادـسـ عـشـرـ مـنـ شـبـاطـ وـصـلـتـ الـرـفـيقـةـ لـلـيـلـىـ إـلـىـ حلـ جـذـريـ وـقـرـارـ صـارـمـ.ـ أـخـذـتـ مـلـابـسـهـاـ وـدـخـلـتـ الـحـمـامـ كـيـ لـاـ يـلـاحـظـ أـحـدـ مـاـ تـنـوـيـ عـلـيـهـ..ـ اـضـرـمـتـ النـارـ بـجـسـدـهـاـ الـطـاهـرـ، وـوـقـفـتـ لـاـسـتـقـبـالـ الـعـشـقـ الـذـيـ طـالـمـاـ اـنـتـظـرـتـهـ سـنـينـ طـوـيـلـةـ إـلـىـ اـنـ نـفـذـ الصـبـرـ..ـ أـنـهـ عـشـقـ كـرـدـسـتـانـ وـالـحـرـيـةـ"ـ...

بـعـدـ مـرـورـ خـمـسـةـ عـشـرـ دـقـيـقـةـ عـلـمـتـ الـعـاـنـلـةـ بـالـأـمـرـ عـنـدـمـ اـنـتـبـهـتـ لـلـدـخـانـ الـرـمـادـيـ الـمـتـصـاعـدـ مـنـ الـحـمـامـ...ـ رـكـضـ أـفـرـادـ الـعـاـنـلـةـ فـزـعـيـنـ، فـتـحـوـاـ الـبـابـ، وـلـمـ تـرـ عـيـونـهـمـ إـلـاـ جـسـداـ تـأـكـلـهـ النـارـ بـنـهـمـ دـوـنـ أـنـ تـشـبـعـ...ـ كـيـفـ تـحـرـقـيـنـ جـسـدـ الـطـاهـرـ النـاعـمـ"ـ!

وخرج ليلى من الحمام والنار تلفها بهيبها.. بقيت واقفة تنظر إلى ما حولها وتلقي عليه نظرة الوداع الأخيرة.. كانت نظرة حميمة عميقة..

"لا تخافوا فسوف تشرق الشمس.. لا تخافوا.. ستحذن لهم ناري بأشعة الشمس لينير لكم دربك.. لا أحد يستطيع يعتم شمسنا..! Kes nikare roja me tari bike! وتنقطر قطرات الدهن من جسدها..."

لم تستجد بأحد، ولم تقبل أخمام النار..

"أريد أن احترق واحرق معي أمراض آلاف السنين وجراثيم هذا المجتمع التي تنخر جسده". نقلت ليلى إلى المستشفى، فتعجب الأطباء من حالها، ومن الحروق التي نهشت بدنها الصغير.. فتحت عينيها فقلت "لا أملك ما هو أغلى من جسدي فديته لقاندي.. قمت بهذه العملية بمحض إراداتي وقراري الطوعي.. أن ما أفعله لا يذكر مقابل ما فعله الرفاق الشهداء الأوائل مظلوم وزكية ورهشان..".

لم تعرف الرفيقة ليلى الخوف ولو للحظة، ولم تتردد في قرارها الصارم لتبيان مدى ارتباطها بالقيادة ورغبتها الجامحة للاعراب عن مدى حبها لها وتشبته بنهجها الحر المشرف، فأضرمت النار في جسدها الطاهر مظيرة للعالم اجمع ان القائد ليس وحيدا، وأنه يعيش في قلوب الملايين المستعدين للتضحية بأغلى ما عندهم في سبيل حرية قائدتهم.. ذلك أنه " لا حياة بدون القائد أبو".

لم تتحمل صديقات الشهيدة ليلى أن يبقين صامتات عما يجري ويكتفين بالترجح على المجريات دون أن يكون لهن حصة منها، فأبین إلا ان ينضممن لصفوف الانتصار بعد شهادتها التي أثرت عليهن كثيرا وهزتهن من الصميم.

ومن بين الصديقات اللواتي كن حميمات مع ليلى كانت هناك شخصية فولاذية لا تعرف الخنوع وتأبه، ذات عزم وإرادة لا تلين.. أنها زليخة التي عاشت في نفس الواقع المرير الذي عاشت فيه ليلى.. وهي أقرب صديقاتها إليها، حيث كانت تتناقشان كثيرا حول الحزب والقائد.. بعد شهادة ليلى فكرت زليخة كثيرا فيما يمكن لها أن تعمل.. جسدت في فكرها مخططها لتزيين نفسها بلهيب نار زكية وسما وليلي..

تشير الساعة إلى الحادية عشرة من ظهر يوم السادس عشر من شباط 1999، عندما شرعت بصنع الشاي لاسرتها.. ملأت كوبا من الشاي المر لنفسها.. لقد اعتادت على مرارة الشاي وكل أنواع المرارة!.. نظرت إلى الكأس وسرحت بخيالها إلى ما وراء الكون الموجود.. إلى عالم الروح الطاهرة المقدسة.. عالم الاجلال الذي يخشع فيه الكل أمام عظمة وخيبة الروح الربة.. وراحت تردد فر قراره نفسها" رفيقتي ليلى لم تكن لها أية علاقة مع PKK،وها هي الآن شهيدة من شهداء PKK الخالدين.. ترقد في الأعلى الساحقة بين الآلهة المجلين.. وأنا! ماذا سأفعل بعدما فعلت هي ما فعلته؟!.. أجل.. على أنا أيضا أن اتخاذ قراري الحاسم، إذ حان الوقت لقول الكلمة الحق مهما كان الثمن.. لا داعي للتتردد والخوف.. ولم الخوف؟!.. ما الذي سأخسره؟!.. لن أخسر سوى عبوديتي وحياتي الزائفة الخاوية.. وأنا لا أقبل أن استمر في حياة كهذه إلى أن يفنى عمري هباء.. سأوحد روحي مع نهج القائد أبو ومع روح الشهيدة ليلى.. سأكون نجمة متألقة وشمساً مشرقة وعشقاً أبداً ورمزاً مشرفاً في جميع القلوب العاشقة للوطن والحرية والقيادة"...

بعدها شربت زليخة نصف كأس الشاي وذاقت مرارته دون تأثير.. وذهبت إلى المطبخ.. ها هو الدخان يتتصاعد.. لقد أضرمت النار بجسدها في المطبخ..وها هو بدنها الغض يذوب مع ازدياد ألسنة النار دون أن

تنطق ببنت شفة.. ز يحترق جسدها تما مثلاً يتلوّع قلبها على القائد الوطني أبو وينفجر الغيظ الكامن فيه على الأيدي القدرة التي تحاول تعتميم الشمس..

حامت الأسرة حول الرفيقة زليخة لخدم النار، لكنها أبى ذلك بصرامة، وأشارت لهم بالابتعاد: "أريد أن أصبح رماداً لتحترق كل آفات آلف السنين وأظهر منها.. لأنك أثراً لا يمحى في صفحات التاريخ" ..

والتفت الرفيقة زليخة بصديقتها الحميمة ليلى في المشفى.. ألقا التحية على بعضهما بعيون كلها أمل وتوق للحرية.. لقد تعاهدنا لا تبقيا دون عشق.. وأقسمتا لا تتركا عشقهما مكبوتا في الاعماق..

"إذا بقينا على قيد الحياة فسنعيش بعشق كبير مع القائد أبو ونتقاسم الآلام والأعمال مع شعبنا العزيز الصامد.. سنعيش مع عشاق الحرية على ذرى الجبال الشاهقة.. وإذا استشهدنا فسنكون في سماء الخلود مع الأرواح المقدسة نظل على أحبانا وشعبنا في كل مساء لتنير له دربه المعتم" ..

وخلال أسبوع من تحدي الصراع والآلام والعقاب المرير أصبحت الرفيقة زليخة أيضاً شمعة لا تنطفئ على درب الحياة الكريمة والتاريخ....

لقد أصبحت كل من الرفيقين ليلى وزليخة نبراساً لرفاقهما اللاتي انضمن في ذلك الوقت إلى صفوف الانصار، ايفاءً منها لجزء ضئيل جداً للدين الواقع على عاتقها مقابل صداقتها لهما ووعدهن المشتركة في السعي للوصول إلى الحياة المشرفة وتتجديدها في الذات.

وها نحن أيضاً نعرب عن التزامنا بالسير على درب الشهيدة ليلى وزليخة وكل الشهداء البررة الذي صحوا بأرواحهم ودمائهم الذكية في سبيل إنارة درينا والوصول إلى حياة حرة مشرفة.

نعاهدكم مجدداً أننا على دريكم السائرون...

صادر في مجلة صوت الحياة عدد خاص شباط 2002

الصفحة 26-24